«عبد الكريم الأشتر الغائب الحاضر»

أ.د. عبد النبي اصطيف

عندما عدت من الإيفاد في العام الدراسي 1983-1984م، أكرمني الله بمجاورة الأستاذ الدكتور عبد الكريم الأشتر في قسم اللغة العربية وآدابها، بعد أن نهلت الكثير من علمه المبثوث في كتبه ومقالاته في سنوات الإجازة في دمشق، وسنوات الدراسة العليا في جامعة أكسفورد. ووجدت نفسي تنجذب إليه لما جُبل عليه من لطف ورقة وعذوبة وحساسية مرهفة. ولم تمض سنوات طوال حتى تقاعد من عمله في جامعة دمشق ليعود إلى مسقط رأسه في حلب، ويتابع رسالته في جامعتها.

واتصل ما انعقد بيننا في دمشق، ولذلك لم تخل زيارة لي إلى حلب من لقاء به والتزود ببعض من علمه ونصحه وفضله. وعندما عُهِد إلي بمهمة تأسيس الهيئة العامة السورية للكتاب وإدارتها حرصت على استكتابه ونشر مايفيض به قلمه، كما ألححت عليه، بسلطان الود مع أخي الدكتور علي أبو زيد، بالمشاركة في مشروع العمل الموسوعي الذي ظهر في مجلدين ضخمين تحت عنوان، اختارته أمينة دمشق عاصمة الثقافة العربية، الحركة الأدبية في بلاد الشام عام 2009، والذي قمت بتحريره والإشراف على نشره مع ثلة من خيرة أساتذة الأدب في الجامعات السورية والعربية ضمت الأساتذة الدكاترة محمود ربداوي ووهب رومية وعلي أبو زيد وفوزية زوباري. وكان في أثناء ذلك كله يتذكرني بنسخة من كتبه التي ألفها في حلب يرسلها بالبريد العاجل ممهورة بإهداء عطر يفيض به حبه لزملائه ومريديه.

لقد تقاعد عبد الكريم الأشتر من جامعة دمشق ولكنه لم يغب، ولن يغيب عنها، ولا عن قسم اللغة العربية وآدابها فيها، والذي طالما سعد به وبعطائه أكثر من ربع قرن.

لقد كان عبد الكريم الأشتر حاضراً باستمرار في هذه الجامعة من خلال كتبه الصوى التي تتلمذت عليها أجيال عديدة في قسم اللغة العربية وآدابها، والتي لم تستطع بعد هذه الأجيال أن تتجاوزها لما انطوت عليه من أصالة وعمق وغنى، وهل يمكن أن يستغني باحث عن كتب الأشتر في الأدب العباسي، أو النثر المهجري، أو الأدب العربي الحديث، أو النقد العربي الحديث؟

لقد كان عبد الكريم الأشتر حاضراً باستمرار في هذه الجامعة من خلال تلاميذه الذين يتابعون تأدية رسالته، ولعلهم يسعون مثله إلى أن يأخذوا أنفسهم بما أخذ نفسه به من تسام وتعفف واحترام للنفس والغير ومحبة للأهل والوطن.

لقد كان عبد الكريم الأشتر حاضراً باستمرار في هذه الجامعة من خلال القيم التي جسدها والتي بتنا نذوب حنيناً إليها مثلما كنا باستمرار نتوق لاستعادته بيننا جسداً وروحاً، وهو الذي لم يغب عن القلب وعن البصيرة في يوم، وإن كان قد آثر حلب بأخلاقه الزَهَر، وروحه القُدس، فبات مريدوه يشتاقون إليه شوقَ اليوم والأمس لأبي علي الحسن بن وهب صديق أبي تمام الذي قال فيه:

يشتاقه من جماله غده
ويكثر الوجد نحوه الأمس

وإذ غادرنا الأستاذ الأشتر اليوم إلى عالم أكثر إنصافاً له من عالمنا هذا، فإن إحساسنا بفقده يتضاعف مرات ومرات، خاصة وأنه كان فريداً في ودّه ووفائه لكل ساعة صحبة جمعتنا به.

نعم سنفتقدك يا أبا محمد، الأستاذ والصديق والزميل والكاتب، الذي جمع في نفسه الأنس والرقة والشفافية والمعرفة، ولكن إنتاجك أيها الصانع الأمهر il miglior fabro، سيكون عزاءنا، فقد كنت - وفي كل ماخطّه يراعك مما فاضت به نفسك، وقلبك وعقلك - المثال الذي أوصى به هوراس في الجمع مابين الفائدة والمتعة، وكنتَ - في كل ما جسّدتَهُ من قيم وأخلاق - آيةَ «الأدب الرفيع» الذي تتسامى إليه العقول، وتهفو الأفئدة.

تغمدك الله برحمته ورفع منزلتك في عليّ جناته وأهم محبيك، وهم كثر، الصبر والسلوان.

دعوة لاكتشاف الذات:
كانَ التّردّدُ هُوَ مِنْ جَعلنِيْ أعْزفُ عَنِ الْكِتَابَة..

شذى محمد الإبراهيم

شَعرتُ أنَّ الكَلِماتِ وقَفَتْ عاجِزَةً أَمَامَ ما يَجْتاحُني من مَشَاعِرَ بالشّفافيّةِ وَالسُّكُونْ، أَحْسَسْتُ أنّ صَمتِي أَجْملُ مِنْ أَنْ تَكسِرَهُ الْحروفُ الّتِي لَمْ تَستطعْ مَسَّ رُوْحِي، وَلَنْ تَقْدِرَ عَلى رَسْمِ شَخْصيّتِيْ.

فِيْ النّهايةِ استَسْلَمتُ لرغْبتِي بالِانْتِشار، وَمن ثَمّ الامتلاءُ بِغَريْزتِي الأنثَويّة، وَشَهوتِيْ لِلتّلاعُبِ بِتِلْكَ الْكَائِنَاتِ الحبْريّة، وَإِخْضَاعِهَا فِيْ نِهاية الأمرْ لِسَيْطَرَتِيْ الأَبَدِيّةْ.

فَقَرّرتُ دُخُوْلَ الْمَتاهَةَ! وَالْبَحْثَ عَنْ مُفْرَدَاتِ نَفْسِيْ بَيْنَ السُّطُورِ! بَيْنَ الْكَلِمَاتِ! بَيْنَ الْحُرُوْفِ! وَتَرَاقَصَ قَلبِي بَيْنَ أَنَامِلِيْ، فَرِحَاً كَطِفْلٍ صَغِيْرٍ وَجَدَ دُمَيَتَهُ الّتِيْ يَبْحَثُ عَنْهَا.

بدأْتُ بِتَشكِيْلِ التَّمَاثِيْلِ الّتِيْ أُحِبُّ أَنْ أَكُوْنَ شَبِيْهَةً بِهَا، فَشَكّلْتُ الْعَدِيْد مِنْ التّمَاثِيل، مُتشبِّهَةً بِالْحَضَارَاتِ الْهِنْدِيّة القديمَة، الّتِي كَانَتْ تُخَلّدُ كُلَّ عَاطِفَةٍ بِإِلَهٍ فَكَانَتْ الْبِدَايَة بِتِمثالٍ يُجسّدُ الْجَمال، وَآخرَ يرمزُ للعَطَاءْ، وَثَالِثٍ للحبّ، وَتَرَكْتُهَا تَنْهَلُ مِنْ شَمْسِ الْحَيَاة، وَبَدَأْتُ لُعْبَةَ الِاخْتِيَارِ وَالتّجْرِيب، وَفِيْ كُلّ مَرّة كُنْتُ أَخْتَارْ، كُنْتُ أتَحَاشَى النَّظَرْ إِلَى تِلْكَ التَّمَاثِيل الصَّغيْرة الّتي كَانَتْ تَتَطَاولُ مِنْ بَيْنِ صَحَارَى النُّفوس، كَتَمَاثِيلِ الأَنَانيّة وَالْغُرُوْر وَالْحِقد، وَأُحَاولُ قَوْلَبَةَ شَخْصيّتِي بِحيثُ تَتَلاءَم مَعَ التّمْثَال الّذِي أَخْتَارُهُ، وَأُحَاولُ أَنْ أَجْعلَ رُوْحِيْ تَنبَعُ من بَيْنِ حَنْيَاتِه، وَأنْ أسْتَشعِرَ نَبْضَ شرايِيْنِي يَخْتَلِجُ فِي سَكَنَاتِه.

حَاوَلْتُ أَنْ أَكُونَ تِمثَالاً لِلْكَمَال، لَمْ أَسْتَطِعْ! حَاوَلْتُ أَنْ أَكُونَ كآَلِهةِ الْجمال، لَمْ أُفْلِحْ! حَاوَلْتُ أَنْ أَكُونَ إلَهاً للتَّضْحِية، لَمْ أنجح! تَمَلْمَلَ فِيْ دَاخِلِيْ تِمثالُ الأنانِيّة فَأَخْمَدتُه! تَطَاوَلَ تِمثَالُ الْغَضَبِ فقتَلْتُه! حَاولَ تِمثالُ الْحقدِ أَنْ يَرْفَعَ رَأْسَهُ فَخَنَقْتُه!.

حاولتُ الاستِفَادَة من تَجَارِبِي، فقَطَفْتُ من كُلِّ بُسْتَانٍ زَهْرَة، وَاقتَبستُ منْ كُلّ تِمثَالٍ جُزءًا، ومع ذلك فشلتُ! فقد تَشَكّلَ لَديَّ تِمْثالٌ مُضحِكٌ!.

فَنَبَذْتُ فِكْرَةَ التّقليْدِ وَالتّجْمِيع، وقَرّرتُ أَنْ أَكُونَ أنَا! أَنْ أُحِبَّ نَفْسِي الّتي حَبَانِي اللهُ إيّاها! واقتنعُ بِنِعمَتِه عَليّ!.

اكتشفتُ أنّ نَفْسَ الإنسانِ بِحدّ ذاتِها بُستانٌ مِنَ الورودِ وَالأشْجَارْ، لا تَخلوْ طَبعاً مَنْ بَعضِ الأَعْشَابِ الضّارة، الّتي يَجب أَنْ نَقْتَلِعَهَا كُلّمَا حاولتِ التّطاولَ والانْتِشارْ، لَكِنَّ الجمال الّذي وهَبَنَا اللهُ إيّاه كافٍ لِجَعْلِ الْوجودِ جَميلاً، فَقط وَفَقَطْ بِالْقَنَاعَةِ وَالشّكرْ.

فَالْحمدُ للهِ الّذي ألْهَمَنِي الطّريق لاكتشافِ نَفْسِي.

وَهيَ دَعْوَةٌ لِكُلِّ إنسانْ، ليكتشفَ نَفْسَهُ وَيُحِبّ ذَاتَهُ الّتِي أعطاَهُ الله إيّاها وَسيكونُ هوَ الرّابح في النِّهاية، لأَنّه سَيَصِلُ إلى جنانٍ مِنَ الْجَمَالِ وَالْحياةِ، وَسَيَخْتَار التّسامح وَالْمحبّة وَالطّيبة، عَناوِيْنَ لأيّامِهِ وَ دروساً لأَقْرَانِهْ.

صوت الشاعر

ممدوح لايقة

أنا لست من حطبٍ
لتحرقني سهامُ النار
إن مرَّت بقربي
أنا لست بقربي
أنا لستُ من حجرٍ أصمٍّ
كيأ:ون محايداً
إمَّا يدٌ سوداءُ
يقتلُ حقدُها أحلامُ شعبي
أنا شاعرٌ
دمُه زلالُ الأرض،
من ماء التوحّد بالتراب
شغافُ قلبي
إذ ذاك تحسبني أُجندَل
كلّما غنّى شهيدٌ عشقَه هذي البلاد
فضمّه
وهفت إليه عيونُ أطفالٍ تكسّر دمعُها
فهوت كما تهوي زغاليلُ الحمام
وقد تقوّض حلمُها
أنا لي هنا وطنٌ من الصفصافِ،
والأطيارُ تمرحُ
في سماءٍ من دعة
الشمسُ تشرق كلّ يومٍ مرّتين
كأنّها تهوى التنزّه
في جنائنه
التي ضجّت سناً
ومواسماً من أغنياتْ
وطنٌ يمور بكلّ ألوان الحياةْ
مانالت الأرزاءُ من جبروته،
ما أطفأت نارَ الهممْ
أنا لي هنا من نكهة التاريخ
ما للسنديان
لي الزمانُ
لي المكانُ
ولي هنا علمٌ يرفرفُ عالياً كالنّسر
دوماً فوق هامات القممْ
وطنٌ يكلله علم
وأنا أغنّي للعلم